المطالعة النافعة

كان لاختراع مطبعة « جوتنبرج » أكبر الفضل فى تكثير الكتب، وإذاعتها بين طبقات الأمم المختلفة، فانتشرت الحقائق، واجتمعت تجارب الامم السالفة إلى الأجيال الخالفة، فقلت الخرافات والأوهام، وقوى ميل الناس إلى التفتيش عن الحقيقة، وكان ذلك ابتداء نهضة علمية عظيمة الشأن، أحيت الناس حياة جديدة، لايزالون يجنون ثمارها اليانعة حتى اليوم.

ولقد أصبحت المعرفة بالقراءة والكتابة - بعد هذا الحادث التاريخى العظيم - من المقاييس التى تقاس بها حياة الأمم ورفعتها، فأعظمها رقيا من أخذ أبناؤها بحظهم منهما، وأحطها من قلت جمهرة القارئين الكاتبين فيها، ولذلك تسمع الدعوة الى نشرهما عالية فى جميع الأمم المتحضرة.

وكان تأسيس المدارس الجديدة بعد ذلك فى كثير من أنحاء الدنيا سببا فى أن أكب الناس على القراءة إكبابا شديداً، وخاصة فى الأزمنة المتأخرة، وظهر لذلك أثر جلى فى ترقية أحوالهم، غير أنه لايزال بين جمهور القارئين من طلاب المدارس من لا يستفيد من قراءة ما يقرأ إلا قتل الوقت (كما يقولون) جهلا منهم بقواعد القراءة وصفاتها التى يجب أن تتحقق فيها فآثرت أن يكون مقالى هذا تذكرة، وتعليما حتى تكون القراءة أعظم أثرا فى تربية العقول، وإنماء المدارك.

شروط القراءة النافعة

(١) أول شرط للقراءة النافعة أن يكون الموضوع محبوبا شائقا، فان الميل إلى الموضوع من أكبر البواعث على توفر الذهن على فهمه ودرسه، ونشاط القلب إلى حفظه ووعيه، فالنفس لا تقبل إلا ما يجانسها، ويلائم طبيعتها، وقراءة موضوع لا تتعلق به النفس، أو تحن إليه، مضيعة للزمن، متعبة للنظر، مشغلة للبال فى غير طائل، فمن المحتم إذن أن تكون الكتب التى يقرؤها الطلاب — فى غير المدرسة — موافقة لأسنانهم وتجاربهم، حتى تكون محببة إليهم، قال ابن المقفع فى الأدب الصغير:

«من أبواب التوفق والتوفيق فى التعلم أن يكون وجه الرجل (الذى يتوجه فيه من العلم والادب، فيما يوافق طاعة، ويكون له عنده محمل وقبول، فلا يذهب عناؤه فى غير غناء، ولا تفنى أيامه فى غير درك، ولا يستفرغ نصيبه فيما لا ينجع فيه، ولا يكون كرجل أراد أن يعمر أرضا تهمة [١] فغرسها جوزا ولوزا، وأرضا جلسا [٢] فغرسها نخلا وموزا».

(٢) ولا بد كذلك من تنويع القراءة، فلينتقل الطالب من موضوع عقلى إلى آخر حسى، ومن مقال جدى إلى مقال فكاهى،

---

(١) الارض المتصوبة الى البحر

(٢) الجلس الغليظ من الارض

ومن فصل تاريخي إلى فصل وصفي ، فان هذا التنويع يبعث على تجديد الشوق ، ونفي الفتور والملال ، وفهم الكلام ، وإن لزوم فن واحد . وعدم التحول عنه لما يكد الأذهان ، ويُسئم النفوس ، وخصوصا نفوس الأحداث والشُّداة الذين لا يزالون فى مُقتَبَل العمر ، وقلة التجربة ، وخفة البضاعة ، وعلى طلاب المدارس الثانوية عامة ، ومدارس المعلمين خاصة أحوج الناس أن يُعنَوْا كل العناية بالمطالعة الاختيارية ، وجعلها شاملة لكل ما يقع تحت الحس ، أو يجول بالخاطر ، لتكون عندهم فكر عامة عن كل شيء فى الحياة ، وإنا لنرى مع الأسف ـ كثيرا من طلاب مدارسنا يجهلون كل ما لا علاقة له بكتبهم الدراسية ، وذلك ناشيء من حبسهم عقولهم فى دائرة خاصة ، وعدم مشاركتهم الناس فى أفكارهم ، وقلة انتباههم إلى ما يحيط بهم ، وقصرهم مطالعتهم على الروايات والكتب الخرافية .

قد يكون توجه الانسان إلى بعض الفنون والعلوم للتخصص فيه خير وسيلة للنجاح الحقيق ، ولكنا نعتقد بحق أن ذلك لا يكون وجها إلا لكبار الطلاب الذين استحصدت عقولهم ، ونمت مداركهم بالقراءة الواسعة فى الفنون المختلفة من قبل ، أما قصر الأحداث المطالعة على نوع واحد من الكتب كالروايات مثلا فأمر قليل الجدوى ، ضعيف الغناء ، وما أحراهم لو فعلوا ذلك أن يُقَوُّوا بعض ملكاتهم ويهملوا بعضها ، وهم لا يعلمون على أى ملكاتهم يعتمدون فى مستقبلهم ، فجدير بالناشئين أن يساووا بين قوى عقلهم فيما يقدمون لها من غذاء

بقراءة الكتب المتنوعة التى تقوى الفكر والخيال والوجدان جميعا ، لا أن يقصروا قراءتهم على نوع واحد، فان فى ذلك إجحافا بسائر الملكات التى لابد من إنمائها وتربيتها حتى يكون العقل كاملا .

(٣) واختيار وقت القراءة له أثر كبير فى الاستفادة منها، فالقراءة التى تكون بعد كد الذهن أو انهاك الجسم فى أعمال متعبة ، لا تكون كبيرة الفائدة . وأحسن وقت (للقراءة والانشاء) هو الوقت الذى يعقب اليقظة من النوم ، إذ يكون الجسم قد أخذ حظه من الراحة ، ويكون العقل قليل الشغل ، والقلب فارغا من الهم والقلق .

(٤) ولا يقل اختيار المكان عن اختيار الوقت أثرا فى الاستفادة من القراءة ، فخير الأمكنة ما كان هادئا بعيدا عن الأصوات والجلبة ، والبواعث المقلقة للنفس ، المبددة للخواطر ، ولذلك كان ما يقرؤه الانسان فى حجرته الخاصة الهادئة أعظم أثرا مما يقرأه فى المراكب والشوارع ووسط الجماهير وفى أفنية المدارس ، ودور التمثيل والحدائق ، ونحو ذلك من الأمكنة التى لا يجتمع فيها القلب ولا يتحد الخاطر .

(٥) ومن المفيد أحيانا أن يجعل الطالب قراءته جهرا لا خفوتا، وجدير بالأحداث والشداة من الطلاب أن يجعلوا قراءتهم جهرية فى كتب الأدب والتاريخ وما اليها — على شريطة أن يكونوا فى مكان خاص — أما إذا كانت حجرة المطالعة عامة كما هى الحال فى خزائن الكتب العامة ، وحجر المطالعة فى المدارس ، حيث يجتمع كثير فى وقت واحد ، فخير لهم أن تكون القراءة خافتة .

ان للقراءة الجهرية لفوائد عظيمة للطلاب ، فهى عونهم على تمرين اللسان على القراءة مع العين ، وهذا مطلب يتعسر على كثير من طلاب المدارس الابتدائية والثانوية ، كما أن القراءة تعين على تصحيح الحروف وتجويدها وإخراجها من مخارجها الاصلية ، ذلك إلى أنها تترك فى فى النفس أثرا أقوى مما تتركه القراءة الخافتة ، لوصول المعنى الى المخ من طريق النظر والسمع (كما يقول النفسيون) ، وذلك مما يجعل القارىء أقدر على استذكار مايقرأ واعادته ، وحفظ كثير منه ، والتغنى به ، واستعماله فى وجوهه .

صفات القراءة النافعة

لاتكون القراءة نافعة تمام النفع — فى رأيى — الا اذافهم القارىء مايقرؤه مبنى ومعنى — واستطاع أن يعبر عنه تارة بالقول ، وطورا بالكتابة ، دون اخلال بشىء من اللفظ أو تضييع لشىء من المعنى

وهذه هى القراءة الدقيقة النافعة حقا ، وعلى عكسها القراءة (السَّطْحِيَّة) ، وأكثر الطلاب فى مدارسنا يقرأون قراءة سطحية ، ولذلك لاينتفعون بكثير مما يقرأون .

وان أحسن وسيلة لادراك تلك الغاية هى أن يكون القارىء مستعدا للقراءة بقلم فى يده ، وتذكرة فى جيبه ، ومعجم قريب منه ، ثم يكون له لسان يسأل ، وقلب يعقل ،

فاذا مر أثناء قراءته بعبارة غامضة فليضع تحتها خطا ، ثم يفتش عن

علة الغموض فيها أمن جهة اللفظ هو أم من جهة المعنى ، وفى مثل هذه الحالة يجب أن يتعود الطالب كيف يرجع الى المظان التى فيها هدايته ، فان أعيته الحيلة رجع الى المعلم ، ولا ينبغى أن يرجع الى المعلم (بَدَاءَة ذى بدء) كلما صادفه مالا قبل له به ، وعندى أن المعلم يجب أن يكون فى أكثر الأحيان مرشدا هاديا لامقررا ملقنا . فليرشد الطالب الى المرجع الذى يستطيع أن يجد فيه ضالته اذا لم يكن الاهتداء اليها متعسرا ، وعلى هذا يتحتم على الطالب الرجوع الى المعجمات ، عند الحيرة فى معرفة المفردات ، وأن يعرف كثيرا من أسماء الكتب فى فنون مختلفة ، ليسهل عليه الرجوع اليها فيما يشكل عليه من المسائل العلمية والفنية ، وفى الاطلاع على فهارس خزائن الكتب العامة والخاصة ، أعظم الغناء لتحقيق هذه الأمنية ، فان لم يهتد الطالب بعد هذا فليسأل المعلمين المختصين أو فليسأل غيرهم من الباحثين فى العلوم ، فانه لن يعدم سميعا مجيبا .

واذا وقف الطالب على تمام معنى ماقرأ بعض الفحص عنه ، وطول الرياضة له ، يجب عليه ان يزنه بميزان العقل الحكيم ، وأن ينقده نقد الصيرفى للدراهم ، فان ذلك من أقوى الوسائل لرسوخ المعنى فى نفس القارىء إذ أن النقد يدعو الى الموازنة والمشابهة ، وتجويد الفهم ، ودقة الحكم . أما التسليم بصحة مايقرأ إذعانا لمقدرة كاتبه أو منزلته او سنه ، فأمر شديد الخطر على تقدم العقل ، وصقل المدارك الفطرية ، فيجب ان تقرأ الكلام من غير رعاية لشىء مما سبق ، فمن

الحق لكل قارئ أن يميز غث الكلام من سمينه، وفاضله من خسيسه، ولا يسمح لعقله بقبول فكرة مدخولة أو عبارة منقوصة معيبة، دون أن يعلق عليها وينتقدها فى موضعها من الكتاب، ولو أدى ذلك الى تشويهه.

إن اعتقاد الانسان بالكمال المطلق فى كل متقدم عليه فى العلم أو الزمن أو السن لأكبر خطر يعوق عقله عن النمو والرقى، وما قامت مظاهر المدنية الحديثة إلا على تحرير العقول فى التفكير دون تقيد برأى قديم، أو مشورة مجرب، ولئن كان المثل العربى القائل (ما ترك الأول للآخر) عقيدة من عقائد سلفنا إنه لجدير بنا فى هذا العصر أن نقول (كم ترك الأول للآخر) وأن نجعل ذلك شعار زماننا، وعلم استقلالنا.

وبعد أن يهتدى الطالب إلى طلبته يجب أن يقيدها بالكتابة فى تذكرته (نوتته) تقييدا، لأن الذى يدفع فى استجلاء الحقيقة ثمنا غاليا: من وقته، وراحته، وذل نفسه بالسؤال، يجب أن يحافظ عليها أشد محافظة، ولأن الانسان موكل به النسيان، فاذا لم يقيد مسائله ضاعت منه، وقد تعرض له حاجة إلى معاودتها، فاذا لم تكن حاضرة بذل فيها من الجهد مثل ما بذل أول مرة، أو رجع بجهلها وخسارتها

قال ابن المقفع فى الأدب الكبير

« وبلغ من اهتمامهم بذلك (يعنى القدماء) أن الرجل منهم كان

يفتح له الباب من العلم، أو الكلمة من الصواب — وهو فى البلد غير المأهول — فيكتبه على الصخور، مبادرة للأجل، وكراهة منه أن يسقط ذلك عمن بعده.

فكان صنيعهم فى ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده، الرحيم البر بهم، الذى يجمع لهم الأموال والعقد: إرادة ألا تكون عليهم مئونة فى الطلب، وخشية عجزهم ان هم طلبوا.»

ومن المستحسن أن يضمن الطالب تذكرته كل مايستجيده من الفصول الرائعة، والفقر البارعة، والأبيات السائرة، والحكم النادرة، والقصص الفائقة، والأخبار الرائقة، والأساليب المبتدعة، والمعانى المخترعة، لحفظه والرجوع اليه، ومعاودة النظر فيه، فى الساعة بعد الساعة، واليوم بعد اليوم، حتى يعتاده ويألفه، فيحتذى على مثاله اذا كتب، ويصب على قوالبه إن تحدث أو خطب.

وإن من أفضل الوسائل للاستفادة من القراءة أن يكتب الطالب خلاصة قصيرة للمقال الذى يؤثر فى نفسه، وينال من إعجابه وهو لو تعود ذلك ودرب عليه، لتعلم كيف يعنى بقراءة مايقرأ، ولهيأ فرصة صالحة ليكون فى يوم ما كاتبا حاذقا، وباحثا نقابا، وتقريسا[1] فطنا.

على أن بعض الناس يكتفى — حرصا على الوقت أن يضيع فى النقل والكتابة — بوضع سمة واضحة على مايختاره فى صفحته ثم يشير اليه فى تذكرته.

---

(١) حاذقا

ثم لابد للطالب من حفظ أجود مايقرأ أو يسمع من أحاديث ذوى العقول ، وأن يخطره بباله ، ويتحدث به فى مجلسه ، ويجعله محل نقاشه وجدله ، وموضوع اهتمامه وعنايته ، ويتلمس الوسائل الممكنة لجعله متصلا بحياته ، فيعظم استقراره فى نفسه ، ويلتحم بعقله وقلبه ، قال مصعب بن الزبير :

« ان الناس يتحدثون بأحسن مايحفظون ، ويحفظون أحسن مايكتبون ، ويكتبون أحسن مايسمعون ، فاذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال ، فانك لاترى ولا تسمع الا مختارا ولؤلؤا منظوما »

تلك هى الصفات والوسائل التى يجب الأخذ بها عند القراءة حتى تكون مؤثرة فى عقول القراء أبلغ الآثار ، وأنا ناقل لك فصلا من كلام ابن المقفع فى هذا الصدد ، إشباعا للقول ، وتأييدا للرأى : قال فى الأدب الصغير :

« ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه ، وعلى وجهه ، فلا ترين عليه فى ذلك ضَئُولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهُدى للاقتداء بالصالحين ، وَوُفّق للأخذ عن الحكماء — ولا عليه ألا يزداد — فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه فى رأيه ، ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه ، فانما احياء العقل الذى يتم به ويستحكم خصال سبع : الأيثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ، والاعتياد للخير ، وحسن الرعى ، والتعهد لما اختير واعتقد ، ووضع ذلك فى موضعه قولا وعملا .

أما المحبة ، فانها تُبلِغُ المرء مَبلَغ الفضل فى كل شىء من امر الدنيا

والآخرة حين يؤثر بمحبته ، فلا يكون شيء أمرأ ولا أحلى عنده منه.

وأما الطلب فان الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون وهو أهم ما يهوون عن طلبه وابتغائه، ولا تدرك لهم بغيتهم ونفاستها في أنفسهم دون الجد والعمل

وأما التثبت والتخير فان الطلب لا ينفع الا معه وبه ، فكم من طالب رشد وجده والغي معا ، فاصطفى منهما الذي منه هرب، والغي الذي إليه سعى . فاذا كان الطالب يحوى غير ما يريد ـ وهو لا يشك في الظفر ـ فما أحقه بشدة التبيين وحسن الابتغاء .

وأما اعتقاد الشيء بعد استبانته فهو ما يطلب من إحراز الفضل بعد معرفته

وأما الحفظ والتعهد فهو تمام الدرك ، لأن الانسان موكل به النسيان والغفلة . فلا بد له إذا اجتبى صواب قول أو فعل من أن يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجته .

وأما البصر بالموضع فانما تصير المنافع كلها الى وضع الأشياء مواضعها وبنا إلى هذا كله حاجة شديدة . فانا لم توضع فى الدنيا موضع غنى وخفض ولكن بموضع فاقة وكد . ولسنا إلى ما يمسك أرماقنا من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول ، وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل ، ولسنا بالكد فى طلب المتاع الذى يلتمس به دفع الضرر والغلبة بأحق منا بالكد فى طلب العلم الذى يلتمس به صلاح الدين والدنيا ».

مصطفى السقا

مدرس بمدرسة الامير فاروق الثانوية